المنافقون وصفاتهم

الدكتور أبو زيد محمد أبو زيد

مدرس التفسير بالكلية

قال الله تعالى : «ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون. في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون . وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون . إلا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين» . صدق الله العظيم

الآيات من ٨ — ١٦ سورة البقرة .

في هذه السورة الكريمة وصف الله الأصناف الثلاثة من المؤمنين والكافرين والمنافقين . وبدأ بالمؤمنين المخلصين الذين صحت سرائرهم وسلمت ضمائرهم . لشرفهم وفضلهم . ثم أتبعهم بالكافرين الذين من صفتهم الإقامة على الجحود والعناد بطريق المقابلة ، إذ الكفر والإيمان طرفان، ثم وصف حال من يقول بلسانه أنه مؤمن وضميره يخالف ذلك . في ثلاثة عشرة آية . فتمى المنافقين الذين ستروا الكفر وأظهروا الإسلام بحسب الظاهر أخبث

الكفرة وأعظمهم جرماً كما يشير إليه قوله تعالى: « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً »(١) .

أخرج ابن سعد عن حذيفة أنه قيل له : ما النفاق ؟ قال : أن يتكلم الإسلام ولا يعمل به(٢) ، فنافق أهل الكتاب مثل عبد الله بن أبى سلول ومعتب بن قشير وجد بن قيس وغيرهم . أكثرهم من اليهود . أظهروا كلمة الإسلام واعتقدوا خلافها كانوا يؤمنون بالله وباليوم الآخر « أوهموا فى هذا المقال أنهم أحاطوا بجانبى الإيمان أوله وآخره وهذا لأن حاصل المسائل الاعتقادية يرجع إلى مسائل المبدأ وهى العلم بالصانع وصفاته وأسمائه ومسائل المعاد(٣) . ولكنهم كانوا منكرين لنبوته عليه السلام .

لقد كانت هذه صورة واقعة بالمدينة . وهم فى الحقيقة لم يتصفوا بالإيمان فى حال من الأحوال لأن إيمان اليهود بالله ليس بإيمان لأنهم يعتقدونه جسما وقالوا عزير بن الله واتخاذهم الولد . (وأن الجنة لا يدخلها غيرهم وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة وغيرها »(٤) وكذلك إيمانهم باليوم الآخر : « خبثهم فيه مضاعفاً لأنهم كانوا بقلوبهم يؤمنون به على ذلك الوجه الباطل وباللسان يوهمون المسلمين بهذا الكلام»(٥) فلهذا كذبهم الله تعالى بقوله الحق « وما هم بمؤمنين » .

وقد قال رسول الله ﷺ : « الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان » أخرجه ابن ماجه فى سننه .

---

(١) سورة النساء الآية ١٤٥

(٢) فتح القدير للشوكانى جـ ١ ص ٤١

(٣) النسفى جـ ١ ص ١٨

(٤) روح البيان إسماعيل حقى جـ ١ ص ٥٢

(٥) الفخر الرازى جـ ١ ص ١٨٧

« فالله سبحانه غير محب لمن أعلم أنه من أهل النار ، بل ساخط عليه ، وأنه محب لمن علم أنه من أهل الجنة ، وقد قال رسول الله ﷺ : « وإنما الأعمال بالخواتيم » .

هذا كما ثبت فى صحيح مسلم وغيره ، عن عبدالله بن مسعود قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أربعين يوماً نطفة ثم يكون بعد ذلك علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل الله الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أوسعيد فوالذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها »(١)

قال القاشانى : الاقتصار فى وصف الكفار المصريين المطبوع على قلوبهم على آيتين والإطناب فى وصف المنافقين فى ثلاث عشرة آية : للإضراب عن أولئك صفحاً إذ لاينجع فيهم الكلام ولا يجدى عليهم الخطاب أما المنافقون فقد ينجع فيهم التوبيخ والتعيير وعسى أن يرتدعوا بالتشنيع عليهم وتفظيع شأنهم وسيرتهم وتحجير عادتهم وخبث نيتهم وسريرتهم وينتهوا بقبيح صورة حالهم وتفضيحهم بالتمثيل بهم وبطريقتهم فتلين قلوبهم وتنقاد نفوسهم وتزكو بواطنهم وتضمحل رذائلهم فيرجعون عما عليه ويصيرون من المستثنى فى قوله تعالى: « إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيما »(٢)،(٣) .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى عدد ٢ ص ١٦٩ طبعة الشعب .
(٢) سورة النساء الآية ١٤٦
(٣) روح البيان إسماعيل حقى ج ١ ص ٥١

واستند — غير واحد من الأئمة — فى الحكمة عن كفه ﷺ عن قتل المنافقين ، بما ثبت فى الصحيحين . عن جابر بن عبد الله قال : أتى رجل رسول الله ﷺ بالجعرانة ، منصرفه من حنين . وفى ثوب بلال فضة . ورسول الله ﷺ يقبض منها . يعطى الناس . فقال يامحمد ، أعدل . قال : « ويلك ، ومن يعدل إذا لم أكن أعدل ؟ لقد خبت وخسرت ، إن لم أكن أعدل » فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه . دعنى يارسول الله ، فأقتل هذا المنافق ، فقال « معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى . إن هذا وأصحابه يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية »(١) .

« يخادعون الله والذين آمنوا »

هؤلاء المنافقون لايجرؤون على — التصريح بحقيقة شعورهم — ولكن القرآن يصف حقيقة فعلهم — بأن معركتهم ليست مع المؤمنين وحدهم إنما هى مع القوى الجبار القهار — الذى لايصح خداعه — « وقد رفع الله منزلة النبى ﷺ حيث جعل خداعه خداعه وهو كقوله : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم »(٢)،(٣) .

وأيما كان فنسبته إلى الله سبحانه إما على طريق الاستعارة والتمثيل لإفادة كمال جنايتهم أى يعاملون معاملة الخادعين . وإما على طريق المجاز العقلى بأن ينسب إليه تعالى ماحقه أن ينسب إلى رسول الله ﷺ إبانة لمكانته تعالى »(٤) .

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الزكاة ، حديث ١٦٢

(٢) سورة الفتح الآية ١٠

(٣) النسفى جـ ١ ص ١٥١

(٤) أبى السعود جـ ١ ص ٩٨

أخرج أحمد بن منيع فى مسنده بسند ضعيف عن رجل من الصحابة : « أن قائلا من المسلمين قال يا رسول الله ما النجاة غدا ؟ قال لا تخادع الله قال : وكيف نخادع الله ؟ قال : أن تعمل بما أمرك الله به تريد به غيره ، فاتقوا الرياء فإنه الشرك بالله . فإن المرائى ينادى يوم القيامة على رؤس الخلائق بأربعة أسماء : يا كافر . ياناجه . ياخاسر . ياخادر ضل عملك وبطل أجرك فلا خلاق لك اليوم عند الله فالتمس أجرك مما كنت تعمل له يامخادع وقرأ آيات من القرآن — « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحداً »(١) .

وقوله : « إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا(٢)»(٣).

« قال ابن كثير ، نبه الله سبحانه على صفات المنافقين : لئلا يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون ، فيقع بذلك فساد عريض — من عدم الاحترام منهم ، ومن اعتقاد ايمانهم ، وهم كفار فى نفس الأمر — .

. . . فأما غير هؤلاء ، فقد قال الله تعالى: « وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم »(٤) .

وقال تعالى : ، لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون

---

(١) سورة الكهف الآية ١١٠
(٢) سورة النساء الآية ١٤٢
(٣) فتح القدير للشوكانى حـ ١ ص ٤١
(٤) سورة التوبة الآية ١٠١

في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا»(١) .

ففيها دليل على أنه لم يغريهم ولم يدرك على أعيانهم ، وإنما كان تذكر له صفاتهم ، فيتوسمها في بعضهم ، كما قال تعالى « ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم »(٢) .

« فإنهم كانوا يريدون بما صنعوا أن يطلعوا على أسرار المؤمنين فيذيعوها إلى المنابذين وإن يدفعوا عن أنفسهم ما يصيب سائر الكفرة»(٣) .

« وما يخدعون إلا أنفسهم» لأن وبال خداعهم راجع إليهم فيفتضحون في الدنيا باطلاع الله نبيه على ما أبطنوه ويدفع ضرر خداعهم عن المؤمنين ويعرفه إليهم وهو كقوله « إنما نحن مستهزئون الله يستهزئ بهم »(٤) .

« أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء»(٥) «ومكروا مكراً ومكرنا مكراً »(٦) .

« إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً »(٧) .

« إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله »(٨) « إن الذين يؤذون الله

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٦٠
(٢) سورة محمد الآية ٣٠
(٣) أبي السعود جـ ١ ص ٩٨
(٤) سورة البقرة الآية ١٤ ، ١٥
(٥) سورة البقرة الآية ١٣
(٦) سورة النمل الآية ٥٠
(٧) سورة الطارق الآية ١٥ ، ١٦
(٨) سورة المائدة الآية ٣٣

ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا »(١) .

« وما يشعرون » أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون .. « ودل هذا على أن المنافقين لم يعرفوا الله إذ لو عرفوه لعرفوه أنه لا يخدع »(٢) .

ثم بين سبحانه — سبب تماديهم فى الخداع والرياء فقال « فى قلوبهم مرض » .

فى طبيعتهم آفة . فى قلوبهم علة .. وشك وظلمة . . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم .. « هذا موضحا فى الدين وليسا من ضاخ الأجساد »(٣) .

واستعيد ههنا « لعدم صحة يقينهم وضعف دينهم — وكذا توصف قلوب المؤمنين بالسلامة التى هى صحة اليقين ، وعدم ضعفه كما قال تعالى: « إلا من أتى الله بقلب سليم »(٤)، (٥) .

أى غير مريض .. عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال: « مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذا مرة ، والى هذا مرة(٦)» .

والآية تحتمل الحقيقة والمجاز.. لأن المنافقين مرضو لما رأوا اثبات أمة النبى ﷺ واستعلاء شأنه يوما فيوما وقلوبهم كانت متألمة تحرقا على ما فاتهم من الرياسة « كما روى أنه عليه الصلاة والسلام من بعبد الله بن أبى بن سلول

---

(١) سورة احزاب الآية ٥٧

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جده ٢ ص ٢٧٢

(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٨

(٤) سورة الشعراء الآية ٨٩

(٥) القاسمى مجلدا جـ ٢ ص ٤٥

(٦) اخرجه مسلم حديث رقم ١٧ ص ٥٠

على حمار فقال له نح حمارك يا محمد فقد آذتنى ريحه فقال له بعض الأنصار اعذره يا رسول الله فقد كنا عزمنا على أن نتوجه الرياسة قبل أن تقدم علينا »(١) .

فهؤلاء لما اشتد عليهم الغم وصف الله تعالى ذلك فقال : « فزادهم الله مرضا » بأن طبع على قلوبهم لعلمه تعالى بأنه لا يؤثر فيها التذكير والانذار وقيل : « يحتمل أن يكون دعاء عليهم بزيادة الشك ... وفرط النفاق »(٢) .

« فإن قلت فكيف يحمل على الدعاء والدعاء للعاجز عرفا والله تعالى منزه عن العجز قلت : هذا تعليم من الله عباده أنه يجوز الدعاء على المنافقين والطرد لهم لأنهم شر خلق الله لأنه أعد لهم يوم القيامة الدرك الأسفل من النار وهذا كقوله تعالى : « قاتلهم الله أنى يؤفكون »(٣)،(٤) .

فبازدياد التكاليف الشرعية .. يزدادون كفرا . ورجسا قال تعالى : « فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون »(٥) .

وشرا إلى شرهم وضلالة الى ضلالهم .

وغما على غمهم بما يزيد فى اعلاء أمر النبى ﷺ وتعظيم شأنه لانهم عموا وصموا عن الحق ، ولأنهم كانوا يحزنون لأى نعمة تنزل بالمؤمنين

---

(١) الفجر الرازى حـ ١ صـ ١٨٩
(٢) فتح القدير الشوكانى حـ ١ صـ ٤٥
(٣) سورة المنافقون الآية ٤
(٤) روح البيان اسماعيل حقى حـ ١ صـ ٥٦
(٥) سورة التوبة الآية ١٢٤ — ١٢٥

كما قال تعالى : (إن تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها وأن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط)(١)

هؤلاء المنافقون ... زادهم ذلك انكاراً وجبنا وضعفا ولقد حقق الله تعالى ذلك بقوله (وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا ياأولى الأبصار)(٢)

ثم بين سبحانه نتيجة خداعهم لله والمؤمنين فقال (ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون) لأنهم استمروا فى نفاقهم وشكهم . ويزدادون بذلك فى الآخرة عذابا على عذاب قال تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله فردناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون)(٣) .

وفيه رمز إلى قبح الكذب ، وشناعته ، وتخييل أن العذاب الأليم لاحق بهم من أجل كذبهم مع إحالة على السامع بأن لحوق العذاب بهم من جهات شتى — ونحوه قوله تعالى : (مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً)(٤)(٥) :

(فهؤلاء المنافقون قد جمعوا الخسيين الكفر الذى توعد الله مرتكبه بالعذاب العظيم ، والكذب الذى توعد الله مقترفه بالعذاب الأليم)(٦)

ثم أخذ سبحانه من صفاتهم العديدة بقوله (وإذا قيل لهم لاتفسدوا

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٢٠

(٢) سورة الحشر الآية ٢

(٣) سورة النحل الآية ٨٩

(٤) سورة نوح الآية ٢٥

(٥) القاسمى مجلد ١ ج ٢ ص ٤٦

(٦) تفسير سورة البقرة لفضيلة الدكتور أحمد السيد الكومى ص ٧٠

فى الأرض) إذ قال المسلمون .. لهؤلاء المنافقين لاتفسدوا فى الأرض بتهييج الحروب والفتنة وكانوا يمالئون الكفار على المسلمين بافشاء أسرارهم إليهم ، واتخاذهم أولياء مع مايدعون فى السر إلى تكذيب النبى ﷺ : قال تعالى (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير)(١) وإظهار معصية الله تعالى كما قال تعالى : (فهل عسيتم إن إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم(٢))

وفى اتباع هذا فى اسلوب أنه فى فساد ما فى الأرض وانتفاء الاستقامة عن أحوال الناس ، والوروع والمنافع الدينية والدنيوية .

قال الله تعالى : (وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لايحب الفساد)(٣) .

(وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون)(٤) .

بعد توجيه النصح والارشاد لهم . يجيبون بما يحقق ايمانهم وأنهم فى الصلاح بمنزلة سائر المؤمنين (قالوا إنما نحن مصلحون) أى بين المؤمنين وأهل الكتاب نداري الفريقين ونريد الاصلاح بينهما كما حكى الله عنهم أنهم قالوا : (فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاؤك يحلفون

---

(١) سورة الأنفال الآية ٧٣
(٢) سورة محمد الآية ٢٢
(٣) « البقرة « ٢٠٥
(٤) « « « ٣٠

بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا)(١) .

قال الراغب: تصوروا إفسادهم بصورة الإصلاح لما فى قلوبهم من المرض كما قال : (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون)(٢) وقوله : (فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون)(٣) وقوله : (الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) (٤) ، (٥) .

ولقد كذبهم الله تعالى ـ الكذبا مؤكدا فى دعواهم أنهم مصلحون فقال: (ألا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) .

أيها المؤمنون أعلموا أنهم لا يقفون عند حد الكذب والخداع ، بل يضيفون إليهما السفه والادعاء .. فهؤلاء المنافقون مقصورون على إفساد أنفسهم بالكفر والناس بالتعويق عن الإيمان لا يتخطون منه إلى صفة الاصلاح ولكن من جهلهم لا يشعرون ولا يعلمون أنهم مفسدون . ولما نهاهم فى الآيه المتقدمة عن الفساد أمرهم فى هذه الآية بالإيمان فقال — سبحانه وتعالى :

(وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس) هذا هو النوع الثالث من قبائح المنافقين . التى تثبت ان الله سبحانه يقول : « وإذا قيل للمنافقين آمنوا كما

---

(١) سورة النساء الآية ٦٢
(٢) « فاطر الآية ٨
(٣) « الأنعام الآية ٤٣
(٤) « الكهف الآية ١٠٤
(٥) القاسمى مجلد ١ ـ ٢ ص ٤٨

آمن أصحاب محمد ﷺ من المهاجرين والأنصار . وأطيعوا الله ورسوله في امتثال الأوامر وترك الزواجر . أجابوا بأحمق جواب وأبعده عن الحق والصواب « قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء »

فنسبوا إلى المؤمنين السفه استهزاء واستخفافا . قائلين أنصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة وعلى طريقة واحدة وهم سفهاء)

فإن قيل كيف يصح النفاق مع المجاهرة بقوله : (أنؤمن كما آمن السفهاء (١) قلنا فيه أقوال :

الأول : أن المنافقين لعنهم الله كانوا يتكلمون بهذا الكلام في أنفسهم دون أن ينطقوا به بألسنتهم لكن هتك الله تعالى أستارهم وأظهر أسرارهم عقوبة على عداوتهم وهذا كما أظهر ماضمره : أهل الإخلاص من الكلام الحسن وإن لم يتكلموا به بالألسن تحقيقا لولايتهم .

قال الله تعالى : (يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا . ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا . إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكورا)(١)

وكان هذا في قلوبهم فأظهره الله تعالى تشريفا لهم وتشهيرا لحالهم هذا قول صاحب التيسير

والثاني : أن المنافقين كانوا يظهرون هذا القول فيما بينهم لا عند المؤمنين فأخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بذلك هذا قول البغوى

---

(١) روح البيان اسماعيل حقي ج ١ ص ٦٠

والثالث : قول أبي السعود في الارشاد حين قال هذا القول وإن صدر عنهم بمحضر من المؤمنين الناصحين لهم جوابا عن نصيحتهم لكن لا يقتضي كونهم مجاهرين لا منافقين فإنه ضرب من الكفر أنيق وفن في النفاق عريق لأنه يحتمل الشر)(١)

فنسبوا بذلك إلى تسجيل الله عليهم بالسفه بأبلغ عبارة وآكد قول فقال : (ألا إنهم هم السفهاء) حق السفاهة فيهم وهم الجهالة وفساد البصائر وسخافة العقول فيهم (ولكن لا يعلمون) أنهم في الضلالة والجهل وذلك أردى لهم وأبلغ في العمى والبعد عن الهدى .

ثم تجيء الصفات الأخيرة التي تكشف عن سلوكهم الذميم ومدى الارتباط بين المنافقين في المدينة واليهود . إنهم لا يقفون عند حد الكذب والخداع والسفه والادعاء ، إنما يضيفون إليها المكر واللؤم والتآمر في الظلام فقال سبحانه — وتعالى — (وإذا لقوا الذين آمنوا) .

أي هؤلاء المنافقون إذا عاينوا وصادفوا واستقبلوا الذين آمنوا بالقرآن والنبي عليه الصـــلاة والسلام (قالوا آمنا) كذبا آمنا كإيمانكم وتصديقكم . وذلك عند لقاء المؤمنين ليتقوا الأذى ، وليتخذوا هذا الستار وسيلة للأذى ، وإذا خلوا عادوا من المؤمنين وانصرفوا ورجعوا إلى شياطينهم — وهم غالبا اليهود وأصحابهم من المنافقين والمشركين الذين كانوا يمدون في هؤلاء المنافقين أداة لتمزيق الصف الإسلامي وفتنته وفي اليهود سندا وملاذا (قالوا إنا معكم) إنا مصاحبوكم وموافقوكم على دينكم واعتقادكم لا نفارقكم في حال من الأحوال

وكأنه قيل لهم عند قوله : (إنا معكم) فما بالكم توافقون المؤمنين

---

(١) روح البيان اسماعيل حقي حـ ١ ص ٦٠

فى الإتيان بكلمة الشهادة وتشهدون مشاهدهم وتدخلون مساجدهم وتغزون معهم فقالوا (إنما نحن مستهزئون) فى تلك الموافقة ، لم نكن بواطننا موافقة لهم ولا مائلة إليهم . وإنما نكون معهم ظاهرا للتشاركهم فى غنائمهم ونشكح بناتهم ونطلع على أسرارهم ونحفظ أموالنا وأولادنا ونساءنا من أيديهم .

ثم قال تعالى جوابا لهم ومقابلة على صنيعهم : (الله يستهزىء بهم) يعاملهم معاملة المستهزىء فى الدنيا . باطلاع الرسول على أسرارهم مع أنهم كانوا يبالغون فى إخفاءها عنه . وبإجراء احكام المسلمين عليهم واستدراجهم بالإمهال والزيادة فى النعمة على التمادى فى الطغيان . وفى الآخرة بجازيهم ويعاقبهم على استهزائهم .

(قال ابن عباس : إذا دخل المؤمنون الجنة والكافرون النار فتح لكل من الجنة بابا على الجحيم فى الموضع الذى هو مسكن المنافقين فإذا رأى المنافقون الباب مفتوحا خرجوا من الجحيم ويتوجهون إلى الجنة وأهل الجنة ينظرون إليهم فاذا وصلوا إلى باب الجنة سد عليهم الباب)(١)

وذلك قوله تعالى : (إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين . فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون)(٢)

وابن جرير يقول . المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب

---

(١) تفسير النووى ج ١ ص ٥

(٢) سورة المطففين ٢٩ ، ٣٤

والعبث منتف عن الله عز وجل بالإجماع وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازات فلا يمتنع ذلك(١)

وذكر سبحانه — مصورهم — فقال (ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) ، يريهم ويمهل لهم نتيجة استهزائهم فهم يترددون فى الضلالة ويتحيرون بين الإظهار والإخفاء أو بين البقاء على الكفر أو تركه إلى الإيمان كما قال تعالى : (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون)(٢) .

فهو سبحانه وتعالى — يمكنهم من المعاصى — ليزدادوا إثما حال كونهم يعمهون عن الرشد ومصرين على الكفر معتقدين أنه الحق وماسواه باطل .

وقال تعالى : (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون)(٣) فهم كلما أحدثوا ذنبا أحدث لهم نقمة وهى فى الحقيقة نقمة .

وقال تعالى : (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين)(٤) .

قال ابن جرير (الصواب . نزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم فى

---

(١) ابن كثير جـ ١ ص ٥٢
(٢) سورة الأنعام الآية ١١٠
(٣) سورة القلم الآية ٤٤
(٤) سورة الأنعام الآية ٤٤ ، ٤٥

عتوهم وتمردهم)(١) ، كما قال تعالى : (إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية)(٢)

ثم بين سبحانه — كمال جهالتهم ؛ فيما حكى عنهم من الأقوال والأفعال — بإظهار رغبتهم بقوله تعالى : (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) .

أى المنافقون الموصوفون بالصفات الذميمة السابقة عدلوا عن الهدى إلى الضلال ، ورأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة ، ومن الأمن إلى الخوف وفقدوا الاهتداء للطريق المستقيم ، وضيعوا الفطرة أشد تضييع بتعويد الآباء ثم بعدما ظفروا بها أضاعوها بالنفاق . . سواء في ذلك من كان منهم قد حصل له الإيمان ثم رجع عنه إلى الكفر .

كما قال تعالى فيهم : (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون)(٣)

ويبين جلت قدرته — نهاية ونتيجة — استبدالهم الإيمان بالكفر بقوله تعالى : (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين)

هؤلاء خسروا . وأضاعوا الطلبتين لأن رأس مالهم كالفطرة السليمة والعقل الصرف وربحه الهدى .

فلما اعتقدوا هذه الضلالات بطل استعدادهم واختل عقلهم ولم يبق لهم رأس مال يتوصلون به إلى إدراك الحق ونيل الكمال فبقوا خاسرين آيسين من الربح فاقدين الأصل . وإن ظفروا بما ظفروا به من الأغراض

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ صـ ٥٢

(٢) سورة الحاقة الآية ١١

(٣) سورة المنافقون الآية ٣

وهذه الإطالة توحى كذلك بضخامة الدور الذى كان يقوم به المنافقون فى المدينة لإيذاء الجماعة المسلمة ، ومدى التعب والقلق والاضطراب الذى كانوا يحدثونه كما توحى بضخامة الدور الذى يمكن أن يقوم به المنافقون فى كل وقت داخل الصف المسلم ومدى الحاجة للكشف عن ألاعيبهم ومسهم الشيم(١)

الدكتور أبو زيد محمد أبو زيد
مدرس التفسير بكلية أصول الدين

(١) فى ظلال القرآن للسيد سيد قطب مجلد ١ ص ٥٥